خيال المآته

أحمد محمد الحسيني

تعالت ضحكات " زناتي " على النكتة الأخيرة الذي أطلقها صديقه وجاره " مرعي " ، قبل أن يفارقه وينحدر ناحية تكعيبة العنب التي تظلل تحتها الساقية وحماره الأبيض الفتيّ، وقد مالت الشمس ناحية الغرب، وهو الوقت المناسب لري محصول الخيار بعد انحسار لهيب الظهيرة الساخن.

هيأ الحمار وغمى عينيه وربطه في الساقية، آملًا أن ينتهي سريعًا ليعود لأم العيال التي اقترب موعد وضعها لمولودها الثاني بعد طول اشتياق، كانت تعاني ضعفًا واعتلالًا في صحتها جعله حريصًا على البقاء بقربها دومًا، لكنه اليوم تركها بصحبة ابنه البكر" جابر" ذي العشرة أعوام، ريثما ينتهي من ري الأرض.

تعالى أنين الساقية، و " زناتي " يوجه المياه لري الأحواض التي تتوسطها فزاعة أو "خيال مآته " ، صنعه بمعاونة جابر من ثياب قديمة له ملأها بالقش، وخاط في أكمامها قفازًا قديمًا أيضًا فقدت فردته اليمنى ثلاثة أصابع، أما الرأس عبارة عن كيس من الخيش تفنن جابر في رسم ملامحه فأعطاه ابتسامة واسعة تمتد من الأذن للأذن، وغطى رأسه بقلنسوة صوفية سوداء.

كان الهدف منه إفزاع الغربان والطيور التي تهاجم بذور الخيار قبل الإنبات، ونباتاته الغضة وتتغذى عليها، وكان الناظر إليه من بعيد لا يعرف حقيقته إلا عند الاقتراب منه أو مراقبته لفترة طويلة.

مع انتشار الظلام وعودة الجميع بمواشيهم إلى بيوتهم، كان " زناتي " قد اقترب من منتصف الحقل فجلس قبالة الفزاعة يريح ظهره ويشعل سيجارة، أخذ يتأمله وهو سارح بفكره في حال زوجته ومولودها ، خُيِّل إليه للحظات أنه يبادله النظر ، وشعر بعدم راحة لابتسامته الواسعة، تسائل ما الذي دعا جابر لرسمه بتلك الملامح، ثم ما لبث أن قام وأدار ظهره له متابعًا عمله. لكنه لم يشك لحظة في صوت الضحكات الهيستيري الذي جاءه واضحًا بعد ثوان من خلفه، التفت فجأة و الرعدة تسري في عموده الفقري، فلم يجد سوى هيكل الفزاعة ثابتًا مكانه، جال ببصره في الظلام حوله محاولًا سبر غوره وقلبه يخفق في صدره بعنف، فلم يتبين شيء، ولم يطرق سمعه سوى أنين الساقية البعيد، التفت ليكمل عمله سريعًا وقد تملكه الرعب، فلم يشاهد عيني الفزاعة وهما تشعان بوميض أخضر غريب، وابتسامته وهي تتسع، وحين التفت كان يقف فوق رأسه وصوت الضحكات يهز سكون الليل، ترك الفأس وتراجع للوراء برعب ليتعثر ويسقط على ظهره.

كان آخر ما رأته عيناه لمعان ضوء القمر على سن الفأس وهو يهوي فوق رأسه، ورددت الأرجاء صدى صرخته الأخيرة، وبعدها ساد الهدوء، إلا من صوت الساقية الحزين.

مع طلوع الفجر كانت المياه تغمر الحقل تمامًا، لكنها لم تخف جثة جابر مقطوعة الرأس عن أعين ابنه وجيرانه الذين جاءوا يتفقدون غيابه، ولا عن أعين ضباط وأفراد المباحث بعد ذلك، الذين نقبوا كل شبر في الأرجاء بحثا عن رأس

"زناتي" المفقود بلا جدوى، لكن الرائحة ارشدتهم بعد أيام لاستخراجها من بئر الساقية العميق بعد أن اسودت وانتفخت وغزتها الديدان.

عادت الحياة بعد حين لطبيعتها في القرية، فتولى أعمام جابر رعاية الأرض ، فيما تباينت الأقوال عن سبب موت "زناتي" بهذه الطريقة البشعة، بعد أن عجزت المباحث عن الوصول لدليل يساعد في اتهام شخص بعينه، حتى جاءت الفاجعة التالية .

كانت شمس الصيف الملتهبة قد دفعت الجميع إلى لزوم بيوتهم والاستلقاء تحت هواء المراوح، وتناول البطيخ والعصائر الباردة، لكن "حامد" و "صالح" كانا يحاولان إنهاء عزيق الأرض التي أصبحت مسؤوليتها على عاتقهم بعد وفاة "زناتي"، وقف "حامد" ساندًا ظهره بيده ملتقطٍ أنفاسه والعرق ينزمن جبينه، وقال:

- أعوذ بالله، بوابة جهنم اتفتحت علينا ولا إيه؟! روح يا صالح هات لنا ميه ساقعة وتعال، خلاص هانت كلها ساعة.

رمي "صالح" فأسه وبسط كفه فوق حاجبيه ليحجب ضوء الشمس وهو ينظر لما تبقى أمامهما من عمل في ضجر، وتحرك مثقلًا ناحية البلدة، حتى غاب وراء أشجار الصفصاف العالية.

جلس "حامد" يلتقط أنفاسه واضعًا رأسه بين ركبتيه وهو يفكر في ما حدث لأخيه الأكبر "زناتي"، ومصير زوجته وابنه، سمع صوتًا خلفه فرفع رأسه في إرهاق، وحدث كل شيء في سرعة!

التف حبل الليف الخشن حول رقبته وجذبه للخلف بغتة، صدمته المفاجأة وحاول التقاط أنفاسه وهو يركل بقدميه ويمد يده لتحرير عنقه، وفي نفس الوقت يحاول لف رأسه ليرى مهاجمه الذي تابع جره نحو الساقية، برز لسانه واحتقن وجهه وهو يجاهد للتنفس، ومن طرف عينيه لمح ظهر المهاجم الذي تبرز بقايا قش من فتحات في ثيابه، و قلنسوته السوداء البالية. ألقى به المسخ تحت تكعيبة العنب واستدار إليه، وقد اشتد الوميض الأخضر الصادر من عينيه، وزادته ابتسامته الواسعة بشاعة بتلك الأسنان الصفراء التي بدأت تنمو في فمه، مد يده نحو وجه "حامد" الذي شله الرعب وفتح كفه، فخرجت من كم سترته حشود من نمل أسود كبير الحجم تحركت بسرعة وهجمت على "حامد" ؛ فغطت وجهه وملأت فمه وأذنيه وتسربت من كل فتحات جسمه وهو ينتفض تحتها في جنون مكبل الحركة غير قادر على الصراخ، راقبه المسخ بتلذذٍ وصوت ضحكاته يرتفع، قبل أن يرفع بيده الأخرى سكينًا حادة ليغرسها بضربة واحدة حتى المقبض في قلبه.

عاد "صالح" حاملًا زجاجة ماء باردة تحت إبطه، وهو يمشي بتثاقل آملٍ أن يُنهي أخوه القدر الأكبر من العمل قبل أن يصل إليه، ما أن تجاوز حاجز أشجار الصفصاف العالية، وانحدر ناحية الساقية، فاصطدم بالمشهد الدامي، تجمد العالم من حوله وهو ينظر إلى جثة أخية الغارقة في الدماء وقد فقدت أطرافها، و شلت الصدمة بدنه وتفكيره و أفقدته حواسه لثوان، وقبل أن يستعيدها كانت سكين المسخ أتت من خلفه وانغرست أسفل ذقنه.

استدار جسده ببطء فشاهد وجه الفزاعة الذي صار أكثر بشاعة ، وبابتسامته المعهودة وبهدوء سحب السكين فتفجرت نافورة دماء من فم صالح

ورقبته، حاول في تخبطه أن يضغط عليها بيده، قبل أن يتهاوى أرضًا ويجاهد لاستلال أنفاسه من وسط شلال الدماء، ومن خلال عينيه المتسعتين رعبًا، شاهد المسخ وهو يميل عليه فيمزق ثيابه بسكينه، وقبل أن يغيب في الظلام كان قد رأى أحشاؤه وهي تتلوى وتخرج من شق بطنه الطولي.

قبيل المغرب كانت البلدة مقلوبة رأسًا على عقب، بعدما شاهد أحدهم ما حدث فسارع بإبلاغ العمدة، عادت قوات الأمن للبلدة وتم فرض طوق أمني حول الساقية التي أزالوها تمامًا ، لم يكن من الصعب هذه المرة تخمين مكان الأطراف والأحشاء المفقودة، فتم استخراجها من بئر الساقية، وأثناء خروج الجندي بآخر البقايا لاحظ كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا ملفوفًا بإحكام بخيوط حمراء، عائمًا في المياه الدامية، فسلمه لضابط المباحث، الذي احتفظ به حتى تم نقل الجثث إلى المشرحة بعد معاينة النيابة، وعاد لمنزل العمدة لاستجواب أهل القرية.

لم يسفر الاستجواب عن شيء، وحين تذكر الضابط الكيس المغلق أخرجه وفتحه على منضدة أمامه، فوجد كيسًا آخر قماشيًا أسود اللون مثلث الشكل بحجم ثلاثة أصابع، مخاطًا بإحكام من كل جوانبه، وبداخله ورقة صفراء منقوش عليها رموز وأشكال غريبة بمداد أحمر، نظر إليها الضابط في حيرة، ورفع بصره للجالسين حوله في تساؤل.

لم يكن الأمر ذا بال، وإذ لم تسفر التحقيقات عن شيء فقد قدر الضابط تقييد القضية ضد مجهول مجددًا، أو إلصاقها بأي مختل عقليًا لإخراس الألسنة،

لكن فضوله وحده هو ما دفعه لمعرفة قصة هذه الورقة ووصولها بئر الساقية. وجاءه الحل سريعًا... فقد تقدم أحد الغفر في تردد وتحدث متلعثمًا:

- أنا عارف الورقة دي جايه منين يا سعادة البيه؟!

بسط الغفير يده بكيس قماشي مماثل تمامًا للكيس الراقد أمام الضابط، وتحدث في خجل عن عدم قدرته وزوجته على الانجاب منذ عشر سنوات، وبعد أن أعيتهم الوسائل، دله البعض على "شيخ" مبروك يعيش منعزلًا على أطراف الصحراء، بعيدًا عن أعين الشرطة. لم يحتج الضابط لسماع أكثر من هذا فقام على الفور راكبٍ سيارته بصحبة الغفير وقوة أمنية صغيرة، وصلت للمنزل المنشود في جنح الظلام وطوقته، طرق الضابط الباب فخرج له عجوز أصلع ضعيف البدن محني الظهر، ما أن رفع بصره في وجه الطارق حتى ابتسم متفهمًا، وأفسح الباب لهم في هدوء.

جلس العجوز بأريحية وكأنه يستقبل ضيوفًا أعزاء، وبعد أن واجهه الضابط بما وجد وسمع، لم تختف الابتسامة عن وجه العجوز وبدأ الحديث قائلًا:

- مش هنكر يا بيه، أنا صاحب الحاجات دي.

وروي قصته التي مر عليها ثلاثون عامًا وأكثر، كان أبوه جارًا ل "خليفة" والد زناتي وحامد وصالح، في الأرض، وحين ألمت به ضائقة مالية، هرع لخليفة يقرضه، فأعطاه ما طلب، لكن ومع مرور الزمن وعدم مقدرته على السداد، جاء به "خليفة"، وأجبره على توقيع عقد بيع أرضه التي تساوي قيمتها عشرة أضعاف ما أخذه منه، ومع وجود عائلة خليفة وراءه وخشيته منهم، اضطر الرجل للتوقيع.

obeikandi.com

ولما دعاه الإحساس بالظلم والعوز بعد أيام، للذهاب إلى المركز وشكاية "خليفة" وعائلته، لم تجاوز قدمه حدود البلدة إلا وهو جثة هامدة ملقاة على جانب المصرف برصاصة في الرأس، وبعدها بأيام حُرق منزله، وغادرت زوجته بطفلها الوحيد خارج البلدة بلا عودة.

كان الطفل وقتها صغيرًا لكن أمه أخذته لواحة وسط الصحراء خوفًا من بطش خليفة، حكت له عن بلد أبيه مكانها واسمها واسم قاتله وأولاده، وعن حقه المسلوب وثأره المطلوب، وكانت وصيتها له قبل أن تموت ألا يدع ثأره وثأر أبيه. شب الفتى ضعيف البدن، فهداه تفكيره لاستغلال عقله بدلًا من جسده في الانتقام، فرحل لساحر عجوز تعلم على يديه فنون السحر، وبقي معه زمنًا، وبعد أن مات العجوز رحل هو إلى هنا واستقر على أطراف الصحراء كان يتكسب مما تعلمه في عمل الأحجبة والأعمال للأهالي، مخفيٍ هويته، جامعٍ للمعلومات من الأهالي، متحينٍ الفرصة للانتقام .

حتى جاءته زوجة " زناتي" ذات يوم تشكو بلوغ ابنها العاشرة من عمره وعدم حملها من بعده ، تريد أن "تخاويه" حسب تعبيرها، وقد اتعبتها وصفات العطارين والأطباء ولم تأت بنتيجة.

أعطاها "العمل" وأمرها بإلقائه في بئر الساقية بدون علم "زناتي".

ساد الصمت بعد توقف العجوز عن الحديث لالتقاط أنفاسه، كسره الضابط بتساؤله:

- وايه اللي في العمل دا؟!

لمعت عينا العجوز وهو يصوبها للضابط قائلًا:

- حبس الجني بجسم الفزاعة، ما يتحررش، إلا إن قتل زناتي وأخواته الإثنين، وروى العمل بدمهم.

اتسعت عيون الجميع وساد صمت ثقيل استمر لدهر، قبل أن يرفع الضابط رأسه ويشير لجندي بتكبيل العجوز الذي لم تفارقه ابتسامته، ونقله لمركز الشرطة.

- سلام عليكم، أمال فين بيت المرحوم زناتي يا بلدينا؟

سمعها مرعي وهو جالس على المصطبة يرتشف كوب شايه الثقيل، فرفع رأسه للسائل الذي تابع:

- أنا قريب أم جابر، كنت مسافر الكويت ورجعت سمعت بالخبر، جاي أعزيها، ربنا يصبرها.

وقف "مرعي" وألح عليه للدخول وشرب الشاي، لكنه رفض محرجًا، فدله على بيت "زناتي"، شكره الغريب فيما تابعه "مرعي" ببصره وهو يفكر، هناك شيء مألوف في هذا الشخص، لا يدري ما هو، وحين لوح له الغريب مغادرًا، كانت يده اليمنى تفقد ثلاثة أصابع.

obeikandl.com